الطبيعة الاجتماعية للهدوئية النسكية*

د. يوحنا كورنوراكيس+

نقلها إلى العربية الأب انطوان ملكي

إن موقف المتنسكين تجاه تقلبات الحياة البشرية يثير مجموعة متنوعة من ردود الفعل المتضاربة في نفوس الأشخاص ذوي التوجهات التقنية اليوم. بادئ ذي بدء، إن الأشخاص المعاصرين الذين يدينون بلا هوادة موقف النسك الصارم هذا قد يندهشون تمامًا إذا حللوا سلوكهم الاجتماعي. إذ، كما يخبرنا علم النفس، إذا حارب الناس بشدة شيئاً ما، إذا رفضوه باستمرار، فلهذا علاقة بعالمهم الداخلي. العداء كوظيفة مهووسة يؤكد ارتباط الناس بالشيء الذي يهاجمونه. لذلك بقدر ما تبدو عزلة حياة النسك قاسية في أعين الناس اليوم، تزداد الخيانة لعلاقة أكثر عمقاً مع هذه العزلة ذاتها. هذا كافٍ ليجعلك تتساءل عما إذا كان الناس، بإدانتهم للعزلة النسكية، يدينون فعليًا عزلتهم التي يخفونها دون وعي في أعماق شخصيتهم. قد تؤدي الوظيفة النفسية للقمع وإسقاط المشكلات النفسية اللاواعية إلى قيام الناس بتوضيح المواقف المشوشة التي يغلقون عليها داخل أنفسهم.

في حين أن المسار الخارجي لنفسية الأشخاص ذوي التفكير التقني اليوم قد يكون طارداً من المركز، أي منفتحاً، فإن الجزء الباطن من شخصيتهم يعاني من تراكم الرغبات المكبوتة ذات الطبيعة الجاذبة، أي الانطوائية. لذلك عندما يكون الناس متلهفين لإدانة قسوة العزلة النسكية، فإنهم في الواقع "يتحدثون" مع الجزء اللاواعي من شخصيتهم، بميلهم المكبوت نحو الانطوائية. ولأنهم يقمعونها، فهذا يعني أنهم يكرهونها، لأن هذا هو ما يفرضه التوتر المنفتح في الأعراف الاجتماعية اليوم. لكنهم أيضًا يرغبون في ذلك، لأنهم يفهمون بشكل لا شعوري وظيفته التعويضية.

على أي حال، مَن الذي طبع في شخصية الناس، كإنذار نهائي، الفكرةَ القائلة بأن الميل الاجتماعي كان صفةً أصيلة وطبيعية؟ من الصحيح، بالطبع، أن قشرةَ الحياة العصرية ذات طبيعة اجتماعية مكثفة. ولكن مَن يستطيع أن يكفل أصالة تلك الطبيعة؟

الأحداث اليومية التي لا يمكن إنكار مأساويتها تقدّم بسهولة في الحياة الحديثة أدلةً وفيرة على عزلة الناس المؤلمة اليوم. لقد أنتج التقدم التكنولوجي ميولاً اجتماعية هي، في الواقع، "تقنية" بمعنى أنها اصطناعية أو ميكانيكية، وفي كثير من الحالات، تضعِف المشاعر الإنسانية وتقلّل من العلاقات الشخصية إلى ما لا يمكن إصلاحه. إن القساوة المعاصرة، واللامبالاة تجاه الأخ، ومعدل الجريمة، والبلادة الأخلاقية والعديد من العناصر التي تسبب التآكل في حياة الإنسان، تؤكّد بشدة على الجانب المبغِض للبشر في الاجتماعيات الحديثة. لذا، إذا بذل الناس اليوم جهدًا لتصفية حالتهم المشوشة، فإن هذا يتحوّل إلى تمرين في معرفة الذات يحطم الرموز الخاطئة والأوهام العامة لتآلفنا "الاجتماعي". إن الناس إذ يدركون تقنيًا اليوم، على الرغم من إدانتهم للعزلة النسكية، يسعون دون وعي إلى الرضا الذي تمنحه هذه العزلة للنساك. وعلى الرغم من تفاخرهم بضميرهم الاجتماعي، إلا أنهم حتمًا أكثر من مدركين لعزلتهم المأساوية. لهذا السبب، اليوم، على الرغم من أنهم يَبدون اجتماعيين، إلا أنهم في الواقع "يبتعدون عن الناس". إن الصراعات التي يسترونها في داخلهم تجبرهم على الدخول في عزلة معادية للمجتمع. لذا فهم غير ناضجين للتخاطب مع الناسك الذي يعيش كهدوئي ولا هُمْ في موقع يسمح لهم بإدانة القرار الحازم

بالهروب من حبائل وسهام الدهر. وبالتالي، فإن الاجتماعيات، التي يحكمون باسمها على "تجاوزات" النسك، هي وسيلة للخروج من العزلة التي يبحثون عنها في نفس الوقت.

من ناحية أخرى، فإن للعزلة النسكية محتوى اجتماعي أصيل يمكن أن يعلّم الناس المعاصرين الكثير، إذا كانوا يرغبون في تعلّم المزيد عن معرفة أخيهم. إن الهروب النسكي من اضطراب الوجود البشري هو أعمق تعبير عن الاجتماعية المسيحية. بالتأكيد، ينطوي هذا الادعاء على تناقض ظاهري لكنه صحيح. "الفردية" النسكية هي تجربة التفاني الأصيل لمحبة الإخوة والأخوات. هذه اللاعقلانية النسكية يفهمها، إلى حدٍ ما، أولئك الذين يعرفون، حتى من دون عمق، تجربة "حياة الصمت". في الحقيقة، الناسك في الصحراء، عاشق الصمت، هو النموذج المثالي للأخ.

ما يشتهيه الناسك أساسًا هو بالطبع اختبار الحضور الإلهي. يهدف نسكه إلى تطهير روحه ونوسه من كلّ ما يعيق أو يحبط هذا الجهد. محبة القريب، "محبة الأخ"، يفهمها الزاهد على أنها ثمرة ثمينة للاختبار الصوفي للآلام الإلهية. فقط عندما يمتلئ قلبه وعقله من حضور الله ومحبته، يكون قادرًا على أن يحبّ أخاه بمشاعر حقيقية من الإخلاص، وحتى إذا لزم الأمر، للتضحية بالنفس. إذا كانت "فريضته" الأساسية باختبار الاتحاد مع الله مضطربة أو مُعوقة، لا يكون الناسك قادراً على أداء واجب المحبة تجاه قريبه، على الرغم من أن هذا بذاته هو ما تتطلبه محبة الله في الواقع. لهذا السبب، على الرغم من أن الناسك لا يتوقف أبدًا عن التعبير عن المودة الأخوية لأخيه، يكون أكثر انفتاحًا في تصريحاته عن المحبة الأخوية والتفهّم عندما يكتسب القداسة والفضائل بمقدار أكبر.

"عندما يأتي الناسك للقاء العالم، تتقلّص روحه"، هذه تجربة مؤكّدة لا جدال فيها. من ناحية أخرى، "كلما ابتعد الناس عن التحدث مع الآخرين، كلما زادت في نوسهم الجرأة أمام الله". هذه التجربة بالتحديد هي المرشد لسلوك الناسك تجاه التقلبات البشرية أو العلاقات الإنسانية كما يفهمها الناس اليوم.

لذلك لا تستطيع التركيبة المنطقية للروح الدهرية أن تفهم أنه حتى في الحالات التي يتجنب فيها الناسك الحديث مع الآخرين يكون هناك استجابة أساسية من المحبة والتفاني تجاههم. إذا كان النساك يتجنبون الناس "من أجل الله"، وإذا كان الله محبة، فإن اختبار حضور الله كمصدر لا ينضب من المحبة الحقيقية، سيمكّن النساك من محبة أقربائهم "محبة إلهية".

وأيضًا، في حالة المودة الأخوية، نواجه "اللاعقلانية" النسكية ونمط سلوك "متناقضًا" نفسيًا وروحيًا. يسأل القديس إسحق: "أتريد أن تكتسب في نفسك محبة قريبك حسب وصية الإنجيل؟ أبعِد نفسك عنه وعندها ستشتعل شعلة المحبة في داخلك وسوف يفرح برؤيتها كما يفرح لرؤيته ملاك نور". الابتعاد عن الأخ ينمّي المحبة كما في الإنجيل، داخل نفس الناسك. ونحن نتعامل هنا مع تناقض وجودي يطال على أقوى الأسس الانسجامَ النفسي والروحي الذي هو شرط أساسي للاجتماعيات الأصيلة. "كن صديقًا لجميع الناس ولكن كن وحيدًا في فهمك". يجب على الناسك في الصحراء أن يحبّ الناس جميعًا، ليمنحهم عواطفه وقلبه، وفي نفس الوقت يجب أن يعيش عزلته التي بدونها لا يستطيع مقابلة الله. "كن شريكًا في آلام الجميع، وكن غريبًا عن كل مَن في الجسد".

في هذا التناقض الوجودي النسكي نواجه التوازن الداخلي الذي عليه تقوم أقوى أسس الاجتماعيات الصحيحة. في كثير من الأحيان، الأشخاص ذوو التفكير التقني، الذين يتباهون بكونهم اجتماعيين، لا يختبرون أي توازن اجتماعي داخلي. فلكونهم اجتماعيين من جانب واحد، أي منفتحين بشكل كثيف، يتمّ استيعابهم في الكلّ الاجتماعي وبالتالي يفقدون فرديّتهم. إذن كيف يمكن للأشخاص الذين يعانون من التشظي الاجتماعي اختبار المحبة الحقيقية لأخيهم، وقد فقدوا وحدتهم الداخلية؟ إذا فعلوا ما يفعلونه لمجرد الظهور بمظهر الصلاح

وليس لأي سبب آخر على الإطلاق سوى الاجتماعيات، فكيف يمكنهم إظهار مشاعر المحبة العفوية؟ تؤكد العلوم الأنثروبولوجية ذات الصلة وجود عزلة مُحكَمة يعاني منها غالبية الناس المعاصرين، وبهذه الطريقة تخون جودة محتوى السلوك الاجتماعي الذي يظهره هؤلاء الأشخاص. إن تجربة الفردانية، كتجربة للوحدة والتوازن الروحيين، هي وحدها ما يمكن أن يخلق سلوكًا اجتماعيًا حقيقيًا ويحافظ عليه. إن الأشخاص المحطمين والمتشظّين داخليًا، بسبب مجموعة متنوعة من الصراعات النفسية، لا يستطيعون التعبيرَ عن أنفسهم اجتماعيًا، لأنهم لا يعجزن عن "مقابلة" المجتمع ككل ولا يمكنهم الانخراط في حوار مع وحداته البشرية الفردية.

على الرغم من أنه يعيش بعيدًا عن الآخرين، إلا أن ناسك الصحراء، من ناحية أخرى، بتوازنه "الاجتماعي" الداخلي، مغمور بالمحبة تجاه أخيه. يقول القديس إسحق: "نحن نعلم، أنه بدون محبة القريب لا يمكن أن يستنير النوس بالكلام أو بالمحبة الإلهية". إن مطلب الاتحاد بالله هو مطلب من أجل "المجتمع" لأنه يتعلّق باختبار العلاقة الشخصية البارزة، أي تلك التي مع الله الثالوث. وبالتالي، في بيئة هذا المجتمع الروحية، محبة المرء لقريبه هي وجود حيوي. على أية حال، كيف يمكن للناسك أن يختبر مثل هذا المجتمع بنفسه؟ إذا كان حقاً قد انقطع عن أخيه، فعندئذ لا يمكن أن "يستنير عقله من خلال الكلام أو الحب الإلهي". لهذا السبب، الناسك يحب أخاه من دون تأثّر، وفي الصحراء حيث يعيش، يعبّر عن الاجتماعية الحقيقية.

يتمّ التعبير عن المحبة العملية للأخ أولاً وقبل كل شيء من خلال دعم المشكلة الأساسية للحياة: تجربة الشعور بالذنب. "لا تكرهوا الخاطئ، لأننا جميعًا مسؤولون. وإذا تقدمت إليه من أجل الله فصلِّ من أجله". وليس هذا فقط بل "افردوا ثيابكم على الفاجر وغطّوه". ويتابع القديس إسحاق أن إن لم تستطيع أن تأخذ خطاياه على عاتقك، وتختبر عار الذنب نيابة عنه، على الأقل لا تنظر إليه بازدراء، لأنه أخوك. يرى الناسك في الصحراء أنّ في العلاقات بين الأفراد وبين البشر، يجب أن نظهر محبة عميقة وغير متأثرة قادرة على تغطية كل ضعف أخينا. لذلك إذا كنت تحب، فأنت لا تنفع قريبك وحسْب، بل تشفي روحك في نفس الوقت. ولكن إذا أنت أدنته، فأنت تفرك الملح في الجراح.

في هذا الفكر النسكي، يمكن للناس المعاصرين رؤية جانب المحبة الناشط. المحبة هنا ليست انفجارًا عاطفيًا بشكل فعال مع شخصية سلبية أو محايدة. إنها، قبل كل شيء، علاقة ناشطة متبادلة، سِمَتها الخاصة هي أنه بقدر ما يُعبَّر عنها يزداد شفاؤها لنفسها. إذا كنت تعرف كيف تحترم ضعفات أخيك، فأنت تبدأ باختبار مباشر لاحترام الذات. بقدر ما تكون لطيفًا تجاهه "يُشفى شرّك". هنا بالضبط حيث يتمّ التأكيد بشدة على القيمة البناءة للعلاقة بين الأفراد: التقدم الروحي ممكن فقط مع التبادلية الاجتماعية. حتى لو كنت منعزلًا في أقسى الصحارى، فلا يمكنك أن تنفصل عن اختبار المحبة الأخوية التي هي بنّاءة ومنوّرة، طالما أن هذه المحبة الأخوية لا تقطع محادثتك مع الله. في كل الأحوال الأخرى، لا يستطيع ناسك الصحراء إلا أن يعبّر عن عاطفته العميقة تجاه مجتمع أخيه.

إن موقف الناسك من المحبة الأخوية ليس درسًا للآخرين على الإطلاق. الناسك في الصحراء لا يمجّد هذه المحبة ليحثّ الآخرين على البحث عنه بينما يظل هو نفسه محاصرًا في هدوئه التام. "كثير من هؤلاء (النسّاك) أعطوا أجسادهم للحيوانات البرية، للسيف أو للنار من أجل أخيهم". لذلك، العديد من روايات النسك، تقدّم لنا ثروة لا توصف ومدهشة من المحبة الأخوية النابضة بالحياة.

كان أبّا أغاثون معروفًا بإظهاره للمحبة الأخوية ولم يكن يستطيع الراحة إن لم يكن قادرًا على فعل أي شيء مفيد لأخيه. كان مستعداً لفعل أيّ شيء لأخيه: "أردت أن أجد مشلولًا لآخذ جسده وأعطيه جثتي". "هل رأيت المحبة الكاملة؟"

يروي الآباء النساك كيف زار القديس مكاريوس أخًا مريضًا وسأله أثناء وجوده إن كان بحاجة إلى شيء. فأجاب المريض: "بعض من الخبز الطري". في أخوية الرجل الرهبانية، كانوا يخبزون مرة واحدة في العام ويبدو أن العاجز لا يستطيع التعامل مع الكعكات الصلبة. "وقف الرجل الفاضل في الحال، وعلى الرغم من أنه كان في التسعين من عمره وانطلق من إسقيط الأخ المريض شاقّاً طريقه إلى الإسكندرية. وعندما استبدل الخبز القاسي بالخبز الطري، أحضره إلى الراهب المريض مشياً على الأقدام". هذا يبرهن تمامًا جوهر الحياة النسكية.

عن الأبّا أغاثون: "رجل أكثر خبرة من أي راهب آخر في عصره، كان يكرّم الصمت والهدوء فوق كل شيء"، أخبروا عنه القصة التالية: "عندما حان الوقت لإقامة سوق في البلدة المجاورة لإسقيطه، ذهب القديس لبيع عمله اليدوي لشراء كعكاته الجافة لتلك السنة. لكنه صادف أنه التقى في السوق 'غريبًا، متروكاً ومريضًا'. فانتهز الفرصة ليثبت ثروته من المحبة الأخوية وأخذ الرجل تحت رعايته. فاستأجر مكانًا ليعيش فيه وأعطاه مأوى، مع مراعاة كل احتياجاته لإعادته إلى صحته في أسرع وقت ممكن. في نفس الوقت عمل 'بيديه' لتغطية تكاليف هذا الدعم للمريض. وفي ستة أشهر استعاد الرجل صحته وعاد القديس إلى حياة الهدوء. هذه هي المحبة الكاملة".

أخيرًا، يذكر القديس إسحق في إحدى رسائله أن أحد الآباء النسّاك علّم أن لا شيء يمكن أن يحرر راهبًا من شيطان الكبرياء والشهوة غير القيام ببعض المهام "الاجتماعية". بعبارة أخرى، يقوم الراهب الذي يعتني بالمرضى و"الغارق في حزن الجسد" بما يوازي أتعاب النسك العديدة التي ستكون ضرورية لمنع الشرير عن مضايقته.

إلى هذا، هناك العديد من الروايات والأحداث الأخرى في الحالة الرهبانية التي تظهر أن الكمال الرهباني يتمّ التعبير عنه بشكل رائع في محبة الأخ. في الواقع، هذه المحبة، كتجربة عملية، هي معيار الكمال. "هذا دليل إلى الذين وصلوا إلى الكمال. حتى لو أُلقي بهم في النار عشر مرات في اليوم من أجل محبة الآخرين، فهذا لا يكفيهم".

لذا إن العزلة السطحية المعادية للمجتمع في حياة النسك هي الثوب الخارجي المتواضع الذي يغطي جمالًا روحيًا لا يضاهى. إن العمق الروحي لممارسة "العزلة القصوى" وأقسى أشكالها هو اختبار المحبة الأخوية الناشئة عن الاتحاد الصوفي مع الله الذي هو المحبة الكاملة واللامتناهية.

* Ιωάννης Κορναράκης, «Ανταύγειες της Πατερικής ερήμου μέσα στο σύγχρονο κόσμο», εκδ. Π. Πουρναρά, Θεσσαλονίκη, σελ. 41-50.

+ أستاذ فخري في علم النفس الرعائي والاعتراف، جامعة أثينا. رقد سنة ٢٠١٣.